

المؤسسات العلمية الثقافية

في تلمسان الزيانية

✍ أ. محمد مشنان (*)

الأحداث أن الحركة العلمية فيه كانت نشطة جدا، وقد ظهر في هذا العصر عدد هائل من العلماء الذين تركوا تراثا علميا كبيرا توارثته الأجيال، وبقي تأثيره على الحركة العلمية في الجزائر وخارجها طيلة قرون متتالية.

وقد تضافرت جملة من الأسباب استطاعت أن تقف في وجه الحالة السياسية والاجتماعية المتردية، فملوك الدولة الزيانية رغم تنافسهم على السلطة، واشتغالهم بالحروب ومواجهة الفتن الداخلية، فإنهم لم يعدموا من شرف تشجيع العلماء على التدريس والإنتاج والتأليف، ومن مظاهر اهتمامهم بالعلم تنشيط الحركة العلمية، إنشاؤهم ورعايتهم

الحالة السياسية كانت والاجتماعية للدولة الزيانية في أغلب فترات متميزة بالاضطراب، إذ كانت الدولة محاصرة بهجمات الدولة الحفصية من الشرق تارة، وهجمات الدولة المرينية من الغرب تارة أخرى، وربما كان الزيانيون هم المغيرين على هؤلاء وأولئك تارة ثالثة، أضف إلى ذلك الفتن الداخلية التي لا تكاد تنطفئ حتى تشتعل مرة أخرى، لأسباب كثيرة منها التنافس على العرش الذي كان قائما على أشده بين أفراد الأسرة الحاكمة^(*).

وقد يظن القارئ أن الحالة العلمية والفكرية قد أخذت المنحى المذكور سلفا، ولكن من المفارقات ومن غرائب مجريات

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - الجزائر.

للمؤسسات العلمية والتربوية التي أدت دورا كبيرا في تفعيل الحركة العلمية والثقافية في ذلك العصر، ويمكن إبراز ذلك فيما يلي:

أولا- إحياء دور التعليم وبناء

المدارس:

لا يمكن للعلم أن يزدهر إلا حيث تنتشر مراكز التعليم، وكان من حظ تلمسان في هذا القرن أنها ورثت مجموعة لا بأس بها من المدارس ذات المستوى العلمي الكبير، شيد الزيانيون أغلبها خلال فترات متعاقبة، وقد أشار يحيى بن خلدون إلى هذه المدارس بقوله: «... والمعاهد الكريمة»⁽²⁾، ووصفها الحسن الوزان بأنها: «حسنة، جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس»⁽³⁾.

وهذا عرض موجز لهذه المدارس:

1- مدرسة ولدي الإمام: بنيت في

عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، وسبب بنائها أن الأخوين ابني الإمام دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما

وابتنى لهما هذه المدرسة التي سميت باسمهما، وكان ذلك حوالي سنة 710هـ⁽⁴⁾.

٢- المدرسة التاشفينية: بناها عبد

الرحمن أبو تاشفين (718هـ-737هـ) بجانب الجامع الأعظم، وعين بها مدرسين من كبار العلماء من أمثال أبي موسى المشدالي، وكانت هذه المدرسة تحفة فنية رائعة، وقد وصفها المقرئ بأنها من بدائع الدنيا. وللأسف أن يد الاستعمار الفرنسي قد أتت عليها فتم تدميرها دون مراعاة لما فيها من جوانب فنية وحضارية، وذلك ليسي مكاها دار البلدية، ثم نقلت بعض تحفها وزخارفها إلى متحف تلمسان، وإلى متحف كلوني في باريس⁽⁵⁾.

٣- مدرسة أبي الحسن المريني

بالعباد: بناها أبو الحسن المريني في منطقة تسمى العباد⁽⁶⁾ سنة ٧٤٨هـ، وذلك أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط⁽⁷⁾.

٤- مدرسة أبي عنان المريني:

أسسها أبو عنان ابن أبي الحسن المريني سنة 754هـ، بجانب مسجد الولي الصالح أبي

عبد الله الشوذى الإشبيلى الملقب بالحلوى⁽⁸⁾.

5- المدرسة اليعقوبية: أسسها السلطان أبو حمو موسى الثانى (760-791هـ) على ضريح والده يعقوب وعميه أبى سعيد عثمان وأبى ثابت، وتمّ تدشينها فى شهر صفر سنة 765هـ. وقد احتفل بها هذا السلطان واعتنى بها، وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات، وكان الإمام أبو عبد الله الشريف التلمسانى واحداً من أكابر مدرسيها، ومن سوء الحظ أن هذه المدرسة قد اندثرت كغيرها من المدارس⁽⁹⁾.

مكانة هذه المدارس وطريقة التعليم فيها: يختار لهذه المدارس كبار العلماء، ويمكن القول بأنها كانت بمثابة جامعات كبيرة، ومن ثم فلم يكن يلتحق بها إلا الطلبة الذين فرغوا من مراحل الدراسة الأولية: الكتابات والزوايا والمساجد.

وكان التعليم فيها مجانياً، ويسير على خطوات مرحلية وفق نظم وتراتب خاصّة، وذلك حسب مستويات الطلبة

واتجاهاتهم العلمية⁽¹⁰⁾، وكان الطلبة الفقراء يسكنون فى غرف تابعة لهذه المدارس، إلا أن حياتهم كانت صعبة كما وصفها الحسن الوزان، ولكنهم عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذاً أو عدلاً أو إماماً⁽¹¹⁾.

ثانياً - انتشار المساجد والزوايا:

لم يكن التعليم فى تلمسان حكرًا على المدارس والمعاهد فقط، بل كان نطاقه أوسع من ذلك، فقد كانت المساجد والزوايا مراكز علمية مساعدة ومكملة للمدارس الكبرى، ففيها يتلقى الطلبة المبادئ الأولية للعلوم، وينال العامة نصيبهم من العلم والثقافة⁽¹²⁾.

وتذكر لنا المصادر التاريخية أن عدد مساجد تلمسان بلغ حوالي 60 مسجداً⁽¹³⁾، وانتشرت منها المساجد التالية:

1- الجامع الكبير: بناه المرابطون سنة 530هـ⁽¹⁴⁾، وهو أشهر المساجد وأكبرها، وقد أفادنا الوادى آشى ببعض العلوم والفنون التى كانت تدرس

فيه⁽¹⁵⁾، مما يبين أن الدروس التي تلقى فيها تظاهري ما كان يلقي في مدارس تلمسان الكبرى، ومن ثم يمكن اعتبار هذا المسجد جامعة على طريقة المتقدمين، وهو بذلك يضاهي جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة⁽¹⁶⁾.

2- مسجد سيدي أبي الحسن:

أسسه السلطان أبو سعيد عثمان سنة 696هـ، وكان هذا المسجد تحفة فنية معمارية⁽¹⁷⁾.

3- مسجد أولاد الإمام: كان تابعا

للمدرسة التي بناها أبو حمو موسى الأول حوالي سنة 710هـ⁽¹⁸⁾.

4- مسجد سيدي بومدين: بني عام

73هـ في عهد أبي الحسن المربني، وأخذ اسم الوالي الصالح الذي دفن بجانبه⁽¹⁹⁾.

5- مسجد سيدي الحلوي: بناه

السلطان أبو عنان المربني عام 750هـ، أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط كله، وهو بذلك من بين آثارهم في عاصمة الزيانيين⁽²⁰⁾.

6- مسجد سيدي ابراهيم

المصمودي: أسسه السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى جانب المدرسة اليعقوبية سنة 765هـ⁽²¹⁾.

ثالثا- تشجيع المكتبات وخزائن

الكتب: ما من شك في أن مثل هذه الحركة العلمية لا يمكن أن تنمو بمعزل عن مصادر المعرفة، وما من شك أيضا في أن علماء تلمسان وطلبتها كانوا مشغولين بجمع الكتب ودراستها، يدل على ذلك كثرة المصنفات المعتمدة في الحياة الدراسية عندهم كما سنرى فيما بعد.

أضف إلى ذلك أن ملوك بني زيان كانوا مهتمين بتعمير المكتبات خدمة للطلبة، ومن الأمثلة الحية على ذلك أن أبا حمو موسى قد أسس خزانة وسع فيها على الطلبة والراغبين في العلم⁽²²⁾، وهذه الخزانة امتدت آثارها إلى القرن التاسع، بل ربما قد تزداد ضخامة واتساعا مع توالي السنين وازدهار الحياة العلمية، وإن كانت المصادر التي بين يدي لا تسعفني بذلك، ولكن هذا الاستنتاج ليس بعيدا عن

الحقيقية بالنظر إلى المعطيات العلمية والثقافية السائدة وقتئذ.

نتائج النهضة العلمية: كان

لمؤشرات النهضة العلمية في القرن التاسع إفرازات ونتائج ملموسة في الواقع، وقد تمثل ذلك في ظهور الكثير من العلماء، الذين ساهموا في تطوير الحياة العلمية والفكرية في هذا القرن، رغم تدهور الأحوال الاجتماعية والسياسية، وقد كانت إسهاماتهم متنوعة، إذ اشتغلوا بالتدريس فكوّنوا خلفاءهم من العلماء والأئمة، وشاركوا في التأليف فتركوا للأجيال تراثاً علمياً زاخراً، وشاركوا في حركة الإصلاح ضد بعض التيارات المنحرفة التي ظهرت على مسرح الأحداث فعملوا على تجنب المجتمع من الوقوع فيها...، ومن أشهر هؤلاء العلماء عائلة المرازقة، وعائلة العقبايين، وابنا الإمام، وابن زاغو، وابن العباس، والسنوسي، وابن زكري، والمغيلي، والمازوني، والونشريسي، والحوضي، والتنسي، وغيرهم...

إن تلك المؤسسات العلمية والتربوية كانت تحتضن مجالس مختلف العلوم، وكانت تدرس فيها أمهات الكتب والدواوين، بدءاً من القرآن والحديث وعلومهما، إلى العقائد وأصول الدين، والفقه وأصوله، واللغة وعلومها، والتصوف، والمنطق، والفلسفة، والطب، والهندسة، والفلك وعلوم الزراعة.

وعن الإنتاج العلمي للقرن التاسع الهجري في عهد الزيانيين يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: «يعتبر إنتاج القرن التاسع... من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي، ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (أو العلماء) والمؤلفات، وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر وجدت أن عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة... وكثير من إنتاج القرن التاسع ظل... موضع عناية علماء القرون اللاحقة...»⁽²³⁾.

الهوامش

- (1) لزمزيد حول الحالة السياسية للدولة الزيانية انظر الجزء الخاص بتاريخ الدولة الزيانية في المصادر والمراجع التالية: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتنسي، تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمحمد الميلي، تلمسان عبر العصور لمحمد طمار.
- (2) بغية الرواد ليحيى بن خلدون: 86/1.
- (3) وصف إفريقيا للحسن الوزان: 19/2.
- (4) انظر: بغية الرواد: 130/1؛ تاريخ الجزائر العام: 249/2؛ تاريخ الجزائر في القديم والحديث: 491/2؛ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: ص 149، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة: ص 438.
- (5) انظر: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره لحاجيات: ص 61-62، تاريخ الجزائر العام: 249/2، تاريخ الجزائر في القديم والحديث: 491/2، تاريخ بني زيان: ص 141، تلمسان عبر العصور: ص 128، الجزائر في التاريخ: ص 438، نفح الطيب للمقري: 47/6؛
Les monuments arabe de Tlemcen. p21
- (6) قرية على بعد 2 كلم من تلمسان، بها دفن الشيخ أبو مدين شعيب وعلماء وصالحون وملوك.
انظر: تاريخ بني زيان: ص 286، وصف إفريقيا للحسن الوزان: 24/2.
- (7) انظر: تاريخ الجزائر العام: 249/2، تاريخ الجزائر في القديم والحديث: 491/2، تلمسان عبر العصور: ص 133، الجزائر في التاريخ: ص 438، 503، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق: 406؛ 274
Les monuments arabes de tlemcen:
- (8) الجزائر في التاريخ: 438.
- (9) انظر: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره: ص 160، 182، تاريخ الجزائر العام: 249/2؛ تاريخ الجزائر في القديم والحديث: 491/2، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مع تعليق الحقق: ص 180، الجزائر في التاريخ: ص 438، رحلة القلصادي: ص 104.

(10) انظر: تاريخ الجزائر العام: 249/2.

(11) وصف افريقيا: 334/2، وانظر: تلمسان عبر العصور: ص. 219.

(12) انظر: الحياة الفكرية بتلمسان، لحاجيات، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 138؛ الجزائر في التاريخ: ص 438.

(13) انظر تاريخ الجزائر العام: 252/2، تاريخ الجزائر الثقافي: 34/1.

(14) انظر: الجزائر في التاريخ: ص 349؛ جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبو عياد: ص 81، تلمسان عبر العصور: ص 44، جولة عبر مساجد تلمسان لرشيد بورويبة، مجلة الأصالة، العدد 26،

ص 172؛ Les monuments arabes de Tlemcen. p140

(15) وسيأتي ذكرها أثناء الحديث عن نشأة ابن زكري العلمية وما تلقاه من العلوم.

(16) الحياة الفكرية بتلمسان في عهد الزيانيين: ص 138.

(17) انظر: الجزائر في التاريخ: 396، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط: 81، جولة عبر

مساجد تلمسان: الأصالة، 172/26؛ Les monuments arabes de Tlemcen: 170

(18) انظر: الجزائر في التاريخ: 397، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط: 81، جولة عبر

مساجد تلمسان، الأصالة: 176/26؛ Les monuments arabes de Tlemcen: 185

(19) انظر: الجزائر في التاريخ: 500؛ جوانب من الحياة في المغرب الأوسط: 81، جولة عبر

مساجد تلمسان، الأصالة: 181/26؛ Les monuments arabes de Tlemcen: 304

(20) انظر: تاريخ بني زيان: 179-180-؛ الجزائر في التاريخ: 503؛ جوانب من الحياة في المغرب

الأوسط: 81، جولة عبر مساجد تلمسان، الأصالة: 176/26؛

Les monuments arabes de Tlemcen: 285.

(21) انظر: الجزائر في التاريخ: 500؛ جوانب من الحياة في المغرب الأوسط: 81، جولة عبر

مساجد تلمسان، الأصالة: 178/26؛ Les monuments arabes de Tlemcen: 240

(22) تلمسان عبر العصور: 207.

(23) تاريخ الجزائر الثقافي: 25/1.